جهود المستشرقين في خدمة التراث العربي : الحديث النبوي أنموذجا

د. الصادق كُرشيد (*)

يتنزل هذا العمل في إطار السعي إلى تخليص ثقافة الأطراف من سيطرة أحكام المركز ومناهجه ومفاهيمه ونتائجه، أوما يسميه البعض بالاستشراق المضاد، لذلك فإن بيان محاسن الاستشراق وعيوبه يصبح في نظرنا "أحد مظاهر معركة التحرر، تحرر الذات من أحكام الغير، وانطلاق الأنا من قبضة الآخر في مستوى التصّور والرّؤية" [1].

وهو ما يستوجب نقدا موضوعيا لأفكار ما زال يناضل من أجلها الكثير من علمائنا ومفكرينا، بقي بعضهم متمسّكا بمقولة المؤامرة، وإدانة المستشرقين بحجة الانحياز إلى الغرب وخدمة مصالحه، مصرّين على إنكار أية دوافع علمية بريئة قد تكون دفعت ببعضهم إلى بذل ما في وسعهم من أجل إحياء تراثنا العربي الإسلامي والتعريف به، غير منتبهين إلى ما يمكن أن يترتّب عن ذلك من ظلم لحركة الاستشراق

(*) أستاذ علوم الحديث بالمعهد الأعلى لأصول الدين بتونس.

(1) حنفي (حسن)، "الاستغراب" للتحرر من تبعية المعرفة الاستشراقية، مجلة الوحدة ، ع 8 ، أيلول 1992، ص 104.

ولأنفسنا على حدّ السواء، لأنهم بذلك يؤسّسون لقطيعة بيننا وبين أناس أمضى بعضهم جلّ حياته في دراسة لغتنا، والتعريف بديننا، والإشادة بثقافتنا، والتنويه بحضارتنا، دون منّ أوكلل، ووفق منهج علمي يتميّز في نظرنا بالكثير من العمق والدقّة.

وفي مقابل هؤلاء المتحفّظين، يقف فريق ثان ظلّ على الدّوام في منتهى الافتتان بالمستشرقين، والانبهار بما توصلوا إليه من نتائج، دون تمييز بين الغثّ والسّمين، ممّا أوقع عناصره في أخطاء علمية فاضحة.

إلا أن غايتنا مما سنبديه من وجهات نظر أشرف من أن نتحامل من خلالها على شخص أوفئة، بما في ذلك من أساء عن قصد إلى مقوّمات هويتنا من لغة، ودين، وقيم، وتاريخ، وحضارة لأنّ همنا الأول والأخير يظلّ البحث عن الحقيقة بكلّ حكمة واتّزان، ودون تشنج وانفعال، عملا بالأمر الإلهي ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ (2).

1 ـ نشأة الاستشراق وتطوره :

يراد بكلمة المستشرق [Orientaliste] كل من هبّ من الغربيين إلى دراسة اللّغات الشرقية كالفارسية والتركية والهندية والعربية، متقصيا آدابها لمعرفة أحوال أمّة من أمم الشرق من حيث قيمها، وتقاليدها، وعاداتها، ومختلف مكوناتها الثقافية والحضارية (3). وتبعا لذلك، أصبحت هذه الحركة المهتمة بكل ما هوشرقي توسم منذ منتصف القرن الثامن

(2) سورة المائدة : 8/5.

(3) انظر : عبد الملك (انور)، الاستشراق في أزمة، تحقيق حسن قبيس، مجلة الفكر العربي، ع 3، 1983، الاستشراق : التاريخ، المنهج والصورة.

عشر في الغرب بالاستشراق [Orientalisme]، كما صار كل متخصص في هذا المجال يسمى بمستعرب [Arabisant] .

لقد أصبح الاستشراق مع مطلع القرن الثاني عشر الميلادي أكثر اهتماما باللغة العربية، وأكثر تركيزا على دراسة الدين الإسلامي، وما انبثق عنه من حضارة، وأفرزه من تراث، إذ شهدت سنة 1172 م، ولأول مرّة صدور أول ترجمة للقرآن الكريم باللغة اللاتينية من قبل روبرت أوف تشستر [Robert of CHESTER] بالتعاون مع هرمان الدلماطي [HERMANN Alemanus]، بأمر من الراهب الفرنسي بطرس المبجّل [Pierre Le VENERABLE](1094 م - 1156 م) [4]، كما سجل القرن الموالي ظهور أول قاموس لاتيني عربي.

ومن الجدير بالذكر أن هذا التوجه قد بدأ التفكير فيه والتخطيط له منذ القرن العاشر الميلادي يوم أصبحت الأندلس مركز تنوير وإشعاع على الغرب، وصقلية همزة وصل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وبدأ القلق يخيم على عقول الرهبان والقسيسين خوفا من هذا القادم الجديد، مما دفع بالكثيرين منهم إلى شد الرحال في اتجاه إشبيلية وقرطبة للتعرف أكثر على هذه الحضارة الوافدة لرصد مظاهر قوتها، وتحديد نقاط ضعفها، تيسيرا لمحاصرتها، وصدها.

(4) للأسف الشديد تمّ لاحقا منع ظهور هذه الترجمة وتداولها من قبل الدوائر الدينية المسيحيّة بعد أن اعتبرتها عاملا من شأنه أن يسهل التعريف بالإسلام، و يحبّب المسيّحيين فيه، و لم يقع السماح بطبعها والاستفادة منها إلاّ في سنة 1543م، ومن يومها أصبحت، ولفترة طويلة، أساس الترجمة إلى الكثير من اللغات الأوربية.(انظر: البنداق (محمد الصالح)، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، بيروت، 1400 هـ / 1980م، ص 95 - 96).

وكان من نتائج تلك الإرساليات أن نبغ من بينها الكثيرون، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، الراهب الفرنسي جربرت دي أورالياك [Jerbert DE ORALIAC] (938 م - 1003 م) الذي نال بفضل إحاطته الواسعة بالثقافة العربية، ودرايته الدقيقة ببعض العلوم، منصب البابوية في روما باسم سلفستر الثاني في الفترة الممتدة ما بين 999م - 1003 م، فكان بذلك أوّل بابا فرنسي.

وبعد أن ظلّ الاستشراق لبضعة قرون يتحرك نسبيا من منطلق معرفي تبشيري، برز مع بداية القرن الثامن عشر الميلادي عامل ثان، ألا وهو العامل الاقتصادي، مما استوجب حصول ائتلاف غير معلن بين بعض المستشرقين وأنظمة حكمهم ذوات النوايا التوسعية للتعرف أكثر على حقيقة شعوب ما وراء البحار من أجل ضرب عناصر القوة فيها وتفتيتها، تمهيدا لبسط النفوذ عليها، ونهب ثرواتها.

وفي المرحلة الأخيرة، فوجئ المتتبعون لحركة الاستشراق بتحول نوعي آخر في المسار العامّ لهذه الحركة إذ انتقل أغلب المستشرقين من دراسة القديم إلى الاهتمام أكثر بالتحوّلات الاجتماعية والسياسية الّتي تشهدها بعض المناطق، وفي مقدمتها العالم العربي الإسلامي، وتحليلها، وصولا إلى نتائج كثيرا ما كانت روافد لأجهزة الاستخبارات وأصحاب القرار في الدول الغربية ذات العلاقات والمصالح المشتركة مع الدول والمناطق التي هي قيد الدرس.

وهكذا أصبحنا اليوم أمام استشراقين، استشراق قديم [Old-Orientalism]، وآخر جديد [New-Orientalism] تمثلهما عدّة مدارس، من أكثرها حضورا وعطاء :

ـ المدرسة الإنجليزية، التي تعتبر من أعرق مدارس الاستشراق وأكثرها اهتماما بالحضارة الإسلامية، ومن أبرز أقطابها جيب هاملتون [Gibb. HAMILTON] (1895 م ـ 1971 م) الذي يُعد الأب الروحي للكثير من المستشرقين بحكم خبرته الطويلة وإشعاعه الكبير حيث اختير لعضوية عدد من المجامع العربية، كما انتدب لإدارة الكثير من المؤسّسات العلمية، فضلا عن عطائه العلمي المتميّز فهوصاحب "الاتجاهات الحديثة في الإسلام" (1947 م)، و"الديانة المحمدية : نظرة تاريخية عامة" (1949م) و"دراسات في الحضارة الإسلامية" (1936م)، بالإضافة إلى ترجمته لرحلة ابن بطوطة (1958م ـ 1962 م) وغيرها من الأعمال الأخرى في أكثر من حقل معرفي.

هذا إلى جانب مشاركاته المتميزة في إثراء دائرة المعارف الإسلامية بأبحاث منهجية توصّل من خلالها إلى قناعتين، أولاهما أنّ الدّين الإسلامي هوالقوة الوحيدة التي استطاعت صهر الشعوب في بوتقة واحدة من الفكر والمعتقد، كما يُعد، من وجهة نظره، خير عامل للتوازن بين فوضى الرأسمالية الغربية وزحف الشيوعية الروسية في مرحلة معينة، إلاّ أنّ هذا العطاء العلمي توقّف نسبيّا من يوم أن تحوّل صاحبه إلى احتراف الاستشراق السياسي، والتعاون مع بعض الدوائر المشبوهة [5].

ـ المدرسة الفرنسية التي بات المنتمون إليها في طليعة المهتمين بتاريخ العالمين العربي والإسلامي، وبما يشهدانه من تحولات اجتماعيّة وسياسيّة لاسيّما في العصر الحديث. ويعتبر لويس ماسينيون L. MASSIGNO (1883 م ـ 1962 م) رائد هذه المدرسة، فهو الذّي أمضى

(5) العقيقي نجيب، المستشرقون، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الرابعة، (د ت) ، 129/1 ـ 13.

معظم حياته باحثا في التّصوف الإسلامي، يفكّك رموزه إلى أن أصبح من أكثر المستشرقين إلماما ودراية به، ورسالته الموسومة بـ " آلام الحلاج شهيد التصوف في الإسلام" التّي نال بفضلها شهادة الدكتورا من جامعة السّربون [Sorbonne] سنة 1922 م خير شاهد على تميّزه في تخصّصه، والحقّ أنّ جهود ماسينيون في خدمة التراث الإسلامي، والتعريف به أكثر من أن تحصى في هذا المقام رغم اتّهامه بالانتساب إلى جيل المستشرقين المحسوبين على الطابور الاستعماري [6].

ومن بين المنتمين أيضا للمدرسة نفسها نذكر مكسيم رودنسون [M. RODINSON] المولود عام 1915م، صاحب الدّور المتميّز في تطوير المنهج المعتمد في مدرسته، إذ على يديه بدأت الدّراسات تسلك مسارا غير معهود كما توحي بذلك عناوين بعض مصنّفاته الرّائدة مثل "محمّد وعلم الاجتماع" (1957م)، و"الإسلام والرأسمالية" (1966م) [7]، و" التاريخ الاقتصادي وتاريخ الطبقات الاجتماعية في العالم الإسلامي" (1970م)، و"آثار الحضارة الإسلامية في الحضارة الأوربية في العصر الوسيط" (1971م) ، و"الماركسية والإسلام" (1972 م)، و"إسرائيل والرفض العربي" (1975 م)، والتي توجها بكتابه الذائع الصيت "جاذبية الإسلام" [8].

ومن المستشرقين الفرنسيين الذين عرفوا بحضورهم العلمي المتميز في المحافل الدولية يرد إسم المستشرق أندريه ميكل [A. MIQUEL]

(6) م ن : 263/1 ـ 268.

(7) تعريب نزيه الحكيم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 3، 1979 م.

(8) تعريب إلياس مرقص، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة العربية الأولى، 1982 م.

والمستشرق جاك بيرك [J. BERQUE] (9) اللّذين يعتبران من رواد التجديد في المدرسة الفرنسية بفضل ما بذلاه من جهود من أجل الارتقاء بالدّراسات الاستشراقية منهجا ومضمونا في إطار سعيهم إلى التخلّص تدريجيا من الاستشراق التقليدي.

يتضّح ذلك جليا من خلال المسلك الجديد الذّي سلكه أندريه ميكل لا سيّما في موسوعته "الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي حتى أواسط القرن الحادي عشر الميلادي" (1968 م)، وكتابه المتميز "الإسلام وحضارته من القرن السابع إلى القرن العشرين" (1977 م).

- المدرسة الألمانية التي تختلف نسبيا عن غيرها في طبيعة علاقتها مع العالم العربي الإسلامي، ويعتبر المستشرق آدم ميتز [A. MEZ] (1869م - 1967 م) المتخصص في الأدب العربي، والعباسي منه على وجه التحديد، صاحب كتاب "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" (1922م) من كبار أعلام هذه المدرسة، يليه حضورا وإشعاعا المستشرق كارل بروكلمان [. C. BROCKELMAN (1868 م - 1956 م) فقيه اللغة العربية قراءة وكتابة، والخبير بالتاريخ الإسلامي والأدب العربي، الّذي مازالت بعض مؤلفاته مثل "تاريخ الشّعوب الإسلامية" (1939 م)، و"تاريخ الآداب العربية" (1937 م) من المراجع الأساسية الّتي لا يستغني عنها كلّ باحث جادّ ونزيه، هذا إلى جانب مشاركاته القيّمة في دائرة المعارف الإسلامية والكثير من المجلاّت والدوريّات المتخصّصة.

---

(9) كان لجاك بيرك الفضل في إصدار ترجمة لمعاني القرآن الكريم (1990 م) إلاّ أنها، وبسبب ما ورد فيها من أخطاء، أثارت حوله الكثير من اللغط إلى حدّ اتّهامه بالمروق، ونعته بـ"عدو الإسلام".

يضـاف إلى هـــؤلاء الأقطـــاب المسـتشـرقــة آنا مـاري فيـشـر [Anna Marie FISHER] التي حـصـلت سنة 1995 م على جائـزة السّلام من رابطة دور النّشـر الألمانيّة، والّتي أعـلنت يوم تكريمها عـدم عـثورها في كلّ من القرآن الكريم والحديث النبـوي عن أيّ نصّ يتضمّن الدّعوة إلى ممارسة العنف والإرهاب، وذلك بعـد عقـود من البـحث الجاد الذي أثمـر أكثر من ثمـانين عمـلا أكاديميا، لم تحظ إلى حـدّ الآن بعناية تُذكـر من لدن مراكز البحث والترجمة في الدّول العربية والإسلامية.

وبالتأمل في منهج البـحث لدى أغلب المنتمين إلى هذه المدرسـة، وما توصلوا إليـه من نتائج، فإنـها تظلّ، من وجهـة نظرنا، بالرّغم ممّا وقع فـيه بعض روادها من شطط أحيـانا، من أكثر مـدارس الاستشـراق موضوعـية، وإنصافا للحضارة الإسلامية [10].

لقـد أصبح الاسـتشـراق اليوم يتـفـرّع إلى أكثـر من نوع، لكلّ مجـاله، ومنهجـه، وأهدافه، ورموزه، فـإلى جانب الاستشـراق السّياسي المعـبّر عن مصـالح الدّول والقوى الغـربية المسـتبدة، يوجد الاسـتشـراق الدّيني القـائم على الدّوافع التّنصيرية، في مقابل الاستشـراق الأكاديمي الّذي لا همّ له إلاّ البحث عن الحقـيقة بفضل ما يتحلّى به محـترفوه، في الغالب، من نزاهة، ومـا يلتـزمـون به من مـوضـوعـيّة. وتـبعـا لذلك، فلا مناص من تـقـسـيم العاملين في هذا الحقل إلى فريـقين : فريق متـعصب ليس لدراسـاتهم قيـمة علمية تُذكر، وفريق مُنصف، ينقسم بدوره إلى جمـاعتين: جمـاعة اشتهـروا بالإنصـاف فـي الأوسـاط العلمـيـة، وأظهـروا أنهم أقـبلوا على الاسـتـشـراق بدافع حب الاطـلاع على حـضـارات الأمم، وأديانهـا، وثـقـافـاتهـا، ولغـاتهـا، وأنهم متـحـررون تمامـا في بحوثهم من أثـر العـواطف الدينية، فكتـبوا عن

(10) انظر : المنجد (صلاح الدين)، المستشرقون الألمان، دار الكتاب الجديد ، 1982م.

الإسلام، وأظهروه في ثوب نظيف على جسد وسخ فهم من منافقي المستشرقين. أما الجماعة الأخرى، فهي ذات أهداف علمية خالصة لا يقصد منها إلا البحث، والتمحيص، ودراسة التراث العربي الإسلامي دراسة تجلولهم بعض الحقائق الخافية عنهم، وهذا الصنف قليل عدده جدا (11).

وعيب أغلب المنتسبين إلى هذه الجماعة، سكوتهم غير المبرر علميا وأخلاقيا عن التشويه المقصود للإسلام من قبل بعض أقرانهم، بما يثيرون حوله من شبهات مغرضة، وما يلصقون بأتباعه من اتهامات باطلة، لإخراج الجميع في صورة تنفر منها النفوس، وتتأذى منها العقول.

2 ـ من إسهامات المستشرقين في خدمة التراث العربي الإسلامي :

الاستشراق ظاهرة معقّدة لا تشف عمّا تحتها بيسر بسبب تنوّع معتقدات محترفيها، وتباين أهدافهم، علما أنّ الأغلبية السّاحقة منهم حتى الرّبع الأوّل من القرن العشرين كانت من رجال الدّين الكاثوليك والبروتستانت، وبعض اليهود.

ومع ذلك، فمن الخطإ عدم الاعتراف بما للكثير من المستشرقين من دور رياديّ في الاهتمام بتراثنا والتّعريف به من خلال تحقيقه وفهرسته ودراسته وترجمته ونشره، بدعوى عدم قدرة المستشرقين على التّحرر من نظرتهم الاستعلائيّة ودوافعهم الاستعمارية المجحفة (12).

(11) مالكي (محمد علي)، موقف المسلم من الدراسات الاستشراقية، مطبعة حسان، القاهرة (د ت)، ص29 ـ 30 (بتصرف).

(12) السامرائي (قاسم)، الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، دار العلم للملايين، ط 1، ص 68.

وأحسب أنّ المستشرقين الألمان كانوا من السبّاقين للتّعريف بالتّراث العربي الإسلامي بشكل منصف، إذ تمكّنوا بفضل ما بذلوه من جهود مضنية من إزالة الغبار عن الكثير من المخطوطات المغمورة، بعد أن فقهوا اللّغة العربيّة، ووطّنوا أنفسهم على التحرّي في البحث، وملازمة الدّقة في إصدار الأحكام، الأمر الذي كان له عظيم الأثر في ترشيد الدراسات الاستشراقية عموما حول الإسلام والمسلمين وتجويدها.

لقد غطّت جهود المستعربين الألمان مختلف حقول المعرفة من لغة، ودين، وتصوّف، وفلسفة، وأدب، وشعر، وجغرافيا، وتاريخ، وسير، وتراجم، ورحلات وفنون، وعلوم تجريبية، إذ وصل عدد المتداول من أعمال المستشرقين الألمان، فيما أعلم، حتى أواخر القرن الماضي أكثر من مائة وسبعين عملا.

وكما حقّق الألمان سبقا في هذا المجال، فقد كان للفرنسيّين دور لا يقلّ أهميّة عن دور جيرانهم لاسيّما منذ أن أصبحت اللّغة العربيّة تدرس في مدرسة اللّغات الشّرقيّة الحيّة بباريس، ممّا ساعد على تزايد عدد المخطوطات العربيّة في المكتبات الفرنسية باستمرار حتّى وصل عددها اليوم إلى ما يزيد عن سبعة آلاف مخطوط في مختلف المعارف والعلوم والفنون، يعود أقدمها إلى القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأحدثها إلى القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، وهوتاريخ بداية ظهور الطباعة في البلاد العربيّة.

لقد أخذت جهود المستعربين الفرنسيّين في خدمة الإسلام لغة، ودينا، وحضارة مناحي عدّة إذ تُرجم القرآن الكريم إلى اللّغة الفرنسيّة أكثر من مرّة، كانت أولاها صدورا سنة 1634م. وفي هذا الإطار تتنزّل أعمال المستشرق ريجيس بلاشير [R. BLACHERE] (1900 م ـ 1973 م)

الّذي قام بترجمة القرآن، وأصدر مجموعة من المصنفات حوله أثارت الكثير من الجدل واللّغط، في مقدّمتها "القرآن : نزوله، تدوينه، ترجمته، وتأثيره" (13) و"قضية محمّد" (14) و"على خطا محمّد" (15) هذا إلى جانب كتابه الشهير "تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر" (16).

أمّا المستشرق الدكتور برّون [Dr. Perron] (1805 - 1872 م)، فيعود إليه الفضل في ترجمة كتاب "المختصر في الفقه" لخليل بن إسحاق (1854 م) و"قصة المعراج" (1854م) و"الطب النبوي" لجلال الدين بن أبي سليمان (1860 م) و"ميزان الشرع الإسلامي" للشعراني (1870 م).

ومن بين المصنّفات التي حظيت باهتمام المستشرقين أيضا نذكر : "تحفة الأحكام في نكت العقود والأحكام" لابن عاصم الأندلسي، الذي قام بترجمته المستشرق هوداس [Houdas.O] (1840 ـ 1916 م) مع شرحه لغويا والتعليق عليه قانونيا (1983 م)، و"الأحكام السلطانية" للماوردي (1915 م)، و"الخراج" لأبي يوسف (1921 م)، و"الرسالة" لابن أبي زيد القيرواني (1924 م) التي قام بترجمتها المستشرق فانيان [FANGAIN.M.E] (1846 م ـ 1931 م) فضلا عن عديد المصنّفات الأخرى في مختلف الآداب والعلوم والفنون، والتي بفضلها أدرك الغرب مبادئ الدّين الجديد، وقيمه الحضارية.

ولّما كانت اللّغة العربيّة هي السّبيل الوحيد للانفتاح على الإسلام وحضارته والاستفادة ممّا حققه المسلمون من إنجازات، وما توصّلوا إليه

(13) تعريب رضا سعادة، دار الكتب اللبنانية، بيروت، ط 1، Le Coron 1974

(14) Le Problème de Mahomed, Paris, 1952.

(15) Dans Les pas de Mahomed, Paris, 1956.

(16) Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du xv siècle.

من نتائج رائدة في مختلف المجالات، كان لزاما على المستعربين أن يولوا اللّغة العربيّة العناية الفائقة باعتبارها البوّابة الرئيسة الوحيدة للاتّصال والتّواصل مع العرب والمسلمين. وهو ما تنبّه إليه بعضهم بالفعل منذ وقت مبكّر[17].

فبالإضافة إلى إجادة استعمال اللّغة العربية نُطقا وكتابة، عمد بعضهم إلى تحقيق وترجمة ونشر المصنّفات اللّغوية والدّواوين الشّعريّة [18]، في حين انصرف آخرون إلى وضع المعاجم اللّغويّة [19]، وتأليف الكُتب المدرسيّة في أكثر من حقل لغويّ [20].

(17) المقداد (محمود)، تاريخ الدراسات العربية في فرنسا، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، ع 168 / 1992م، ص 85.

(18) نشر عميد المستشرقين في زمانه البارون دي ساسي [De Sacy] (1838 م - 1758م) ألفية ابن مالك مذيّلة بشرح وتعليق (1888م)، كما ترجم برينييه [Brenier.L.J] (1814 م - 1869م) في السنة نفسها إلى الفرنسية كتاب الآجرّومية في قواعد العربية لمحمد بن داود الصنهاجي. أما في المجال الأدبي فقد أعد بلاشير دراسة مستفيضة حول المتنبي نال بها درجة الدكتوراه سنة 1935م.
كما أعدّ شارل بيلا [CH. PELLAT] المولود عام 1914 م رسالة دكتورا حول الجاحظ بعنوان "الوسط البصري وتكوين الجاحظ" وذلك سنة 1958 م، مدعّما إيّاها بترجمة فريدة لكتاب البخلاء (1951 م) وفي إطار الاهتمام بالشعر، ترجم دي ساسي أيضا قصيدة البردة للبوصيري (1806م)، كما قام رينو جوسيف توسن [CH. PELLAT] (1795 م - 1867 م)، ولأوّل مرّة بمساعدة أحد أقرانه بنشر ديوان امرى القيس سنة 1837 م..

(19) لقد كانت المعجمية محلّ اهتمام لفيف من المستعربين بفضل بما بذلوه من جهود في هذا المجال تمثّلت بالخصوص في إصدار أكثر من معجم مثل : المعجم العلمي العربي الفرنسي لبوسييه [Beaussier.A] (1821 م - 1873 م) الذي جمع فيه التّعابير اللّغوية المستعملة في لهجات شمال إفريقيا (1887 م)، والقاموس العربي الفرنسي لشارل بيلا، والقاموس الثلاثي : العربي - الفرنسي - الإنجليزي بالتعاون بين بلاشير [Blachere] وأحد زملائه.

(20) ألف دوسافاري [Desavary] كتابه النحو العربي «Grammaire Arabe» سنة 1784م، ويُعتبر كتاب "نحو العربيّة الفصحى" الذي ألف بالتعاون بين بلاشير وزميل له، من أجود ما ألف من كتب في النحو العربي بالفرنسية، وبقدر ما اهتم المستشرقون باللّغة العربيّة الفصحى، فقد أولوا عنايتهم كذلك للّغات العامية من ذلك أن المستعرب كوسين دي برسفال الابن [Caussin de Perceval,J,J,A] (1795 م - 1871 م) صنف كتابا أسماه "النحو العربي العامي» «Grammaire arabe vulgaire» سنة (1854م، كما وضع بلاشير بالتعاون مع أحد أقرانه أيضا كتابا آخر عنوانه "تمارين العربية الفصحى".

ومن المؤكّد أنّ ما بذله الألمان والفرنسيّون وغيرهم من إيطاليين، وأمريكيّين، وروس، وإسبان من جهود رائدة في هذا المجال كان له الأثر الطيب في إحياء قسط كبير من التراث العربي الإسلامي، وإظهاره للنور على أوسع نطاق [21].

وفي إطار تحقيق المزيد من السّبق في هذا المجال، لم يكتف المستشرقون بمختلف ما وقعت الإشارة إليه بل عمدوا إلى ابتكار آليات جديدة كتأسيس أقسام مستقلّة للدّراسات الشرقيّة في أغلب الجامعات الغربيّة، إذ يوجد اليوم في القارة الأمريكية لوحدها حوالي تسعة آلاف مركز للبحوث والدّراسات الشرقيّة الكثير منها في اهتمام دائم بالعالم الإسلامي، فضلا عمّا تقدّمه تلك المؤسّسات وغيرها من منح دراسيّة مغريّة لكلّ من يريد البحث في هذا المجال من الطّلبة والباحثين من مختلف البلدان.

ومما يجدر التّذكير والتّنويه به أنّ المستشرقين استطاعوا على امتداد قرن ونصف (1800 م ـ 1950 م) إصدار زهاء ستّين ألف كتاب، كما تقوم مراكزهم اليوم بإصدار أكثر من ثلاثمائة مجلّة متخصّصة في دراسة التراث الإسلامي، وخير دليل على تمكّن هذه الدوائر من الوفاء بالتزاماتها، نجاحها الباهر في عقد أكثر من ثلاثين مؤتمرا دوليا خلال قرن واحد، يحظى بالمشاركة في أعمال كلّ مؤتمر منها أكثر من ألف مستشرق من مختلف أصقاع العالم، تنتهي جميعها بتوصيات يتأكّد على الجميع التّعاون من أجل تنفيذها في الفترة الزمنيّة المنصوص عليها لعرض النتائج وتقييمها في المؤتمر اللاّحق.

(21) كرد (علي محمد)، أثر المستعمرين في الحضارة العربية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد 7/1927 م، ص 455.

وتشير بعض الدّراسات إلى أنّ الغرب يشهد يوميّا صدور كتاب جديد حول الإسلام والمسلمين بأكثر من لغة، هذا إلى جانب ما يتمّ إصداره من نشريات، وما تزوّد به وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئيّة من مقالات، وأحاديث، وحوارات. أمّا مواقعهم الثريّة والمتميّزة شكلا ومضمونا على شبكة الأنترنت، فهي أكثر من أن تحصى بحكم نموّها العددي المطّرد.

وعموما، فإنّ ما توصّل إليه المستشرقون من نتائج لا يخلومن سلبيات لا يخفيها إلاّ مغالط، ومحاسن لا ينكرها إلاّ مكابر. ولئن كان السّبب في ما ارتكب من أخطاء ضيق النّظر، والشّطط في الافتراضات، فإنّ الأغلب كان في الحقيقة بفعل الجهل باللّغة العربيّة، وعدم المعرفة الكافية بالإسلام عقيدة وشريعة، بالإضافة إلى الإحاطة المنقوصة بتاريخ الأمّة وحضارتها، ممّا جعل العارفين والمنصفين من المستشرقين ينكبّون على مناقشة ما توصّل إليه زملاؤهم من نتائج خاطئة، والردّ عليهم بكل نزاهة وموضوعيّة، معترفين بما وقع من تقصير في حقّ المسلمين.

ولذلك، فإنّه لا يحق لأيّ باحث نزيه حشرُ كلّ المستشرقين في نفس الخانة، والتصدّر لتسليط الأحكام عليهم دون تمييز بين المنصف والمغرض، بدعوى الدّفاع عن مقدّسات الأمّة ومقوّمات حضارتها.

3 ـ المستشرقون والحديث النبوي :

يُراد بالحديث النبوي كل ما صحّت نسبته إلى رسول الله ﷺ من قول أو فعل أوتقرير أو وصف خِلقي أو خُلقي [22]، في حين يعرّفه

(22) أبو شهبة (محمد)، الوسيط في علوم الحديث ومصطلحه، دار الفكر العربي (دت)،

بعض المستشرقين بأنّه "كل ما وُرث عن المسلمين في الصّدر الأول من أقوال وأفعال وعادات وتقاليد" [(23)].

وقد أجمع علماء الأمّة على أنّ المقبول من الحديث النبوي يمثّل المصدر الثاني من مصادر التّشريع مما يستوجب من المسلمين دوام العمل به، والاحتكام إليه، محتجين في ما أجمعوا عليه بما ورد في القرآن الكريم من آيات قطعيّة الدّلالة في هذا الباب كقوله تعالى ﴿ **يا أيها الّذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَأُولِي الأمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الأخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ [(24)]. قال ابن قيم الجوزيّة معلقا "فأمر الله بطاعته، وطاعة رسوله، وأعاد الفعل إعلاما بأن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقا سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه" [(25)].

كما يوجد في الحديث النبوي نفسه أكثر من دليل قطعي الورود والدلالة على ذلك بصريح العبارة كقوله ﷺ ﴿ **دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ [(26)]، محذرا

(23) انظر : جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تعريب يوسف موسى وزميله، الطبعة المصرية، 1984م، ص252.

(24) سورة النساء : 59/14.

(25) أعلام الموقّعين عن ربّ العالمين، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، ط دار إحياء التراث العربي، 54/1.

(26) أخرجه البخاري في الجامع الصّحيح، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ح 6744، موسوعة الحديث النبوي الإلكترونية، شركة البرامج الإسلامية صخر، مصر، الإصدار الثاني، 1997.

ﷺ باستمرار من مغبة الإعراض عن العمل بما صح من حديثه، داعيا المسلمين حكاما ومحكومين إلى العض عليه بالنواجذ ﴿ **أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ** ﴾ (27).

والحاصل، وكما يقول محمد بن علي الشوكاني "إنّ ثبوت حجيّة ما صحّ من الحديث النبوي، واستقلاله بالتّشريع، ضرورة دينيّة، ولا يُخالف في ذلك إلا من لا حظّ له في الإسلام" (28).

أ ـ من مظاهر عناية المستشرقين بالحديث النبوي :

ـ الإحياء والتعريف :

يعتبر المستشرق الفرنسي جان جانيه [J.GAGNIER] (1670 م ـ 1740 م) من أوائل الذين شقوا هذا الطريق، ووضعوا لبناته الأولى، وذلك بترجمته للسيرة النبوية منقولة من المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء إلى اللاتينية ونشرها سنة 1723 م، كما قام المستشرق الهولندي دي يونغ [De Jong] (1832 م ـ 1890 م) بترجمة صحيح البخاري ونشره سنة 1963 م، وهو المترجم والناشر أيضا بالتعاون مع المستشرق الهولندي دي خويه [MJ.DE COEJE] (1836 م ـ 1909 م) لسيرة الرسول ﷺ.

كما يعود لدي خويه الفضل أيضا في التحقيق ونشر كتاب "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام، و"وفيات الأعيان" لابن خلكان في

(27) أخرجه أبو دود في السنن، كتاب السنة، باب لزوم السنة، ح 3988، موسوعة الحديث النبوي الإلكترونية، شركة البرامج الإسلامية صخر، مصر، الإصدار الثاني 1997.
(28) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحقّ من علم الأصول، دار المعرفة، بيروت (د ت)، ص 29.

سنة 1840 م، و"تهذيب الأسماء" للذهبي سنة 1847 م و"طبقات الحفاظ" للمؤلف نفسه سنة 1847 م.

وفي نفس هذا الإطار تمّت ترجمة كتاب "المشتبه في أسماء الرجال " للذهبي من قبل المستشرق موهل [Mohel, J] (1800 م - 1876 م)، و" الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر العسقلاني من قبل المستشرق ألويس سبرنجر [A. SPRENGER] (1813 م - 1893 م)، كما ترجم رينوجوزيف يوسن [Reinaud.J.Y] (1795 م - 1867 م) كتاب "الجامع الصغير "لجلال الدين السيوطي".

أما المستشرق وليم مارسيه [W. MARCAIS] (1874 م - 1956 م) ، فكان له الفضل في ترجمة كتاب "التقريب والتيسير" للنووي، و"الجامع الصحيح" للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ونشره في أربعة مجلدات (29) بالاشتراك مع المستشرق هوداس [Houdas, O] (1840 م - 1916 م)، يضاف إلى ذلك أيضا العمل الإحصائي الفريد الذي أعدّه المستشرق فايسفايلر [Weisweiler. M]، م المتمثل في إحصاء مخطوطات علم الحديث في إستا نبول وذلك سنة 1937 م.

وللعلم، فإنّ جهود المستشرقين قد تجاوزت عملية التحقيق والترجمة إلى محاولة شرح بعض الموسوعات الحديثية حيث قام المستشرق يوسف هوروفيتش [J. HOREVITZ] (1874 م - 1931 م) أستاذ اللغة العربية والمتخصّص في الدراسات الإسلامية بالهند بشرح أجزاء من "الجامع الصحيح" للإمام البخاري.

El Bokkar : les traditions Islamiques, Paris, 1903 - 1914. (29)

هذا ولا بدّ من التذكير أيضا بما بذله المستشرق الألماني المولد، البريطاني الجنسية كرنكوف فريتس [Krenkov, Fr] (1872 م ـ 1953 م)، المعروف بعد اعتناقه الإسلام بـ "محمد سالم الكرنكوي" من أعمال جليلة، على رأسها تحقيقه المتميّز لكتاب "التاريخ" لمحمد بن إسماعيل البخاري، وكتاب "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم الرازي، و"الدرر الكامنة" لابن حجر العسقلاني، ونشرها تباعا.

ومن أبرز الأعمال التي ظلّ الباحثون ينتفعون بها، ما قام به أستاذ العربية المستشرق الهولندي ونسنك [Wensinck, A.J] (1882 م ـ 1939 م) بالتعاون مع لفيف من زملائه، وبمساعدة محمد فؤاد عبد الباقي، وبدعم من عديد المجامع والهيئات والاتحادات العلمية البريطانية والدنماركية والسويدية والهولندية وغيرها من عمل جليل، المتمثل في "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي" الذي احتوى على ما ورد من مادَة حديثيَة في الموسوعات الحديثيَة التّسع [30].

وهو عمل ضخم وريادي في مجاله، كان إلى وقت قريب لا يستغني عنه أيّ باحث في المجال الإسلامي بالرّغم ما يشكوه من نقائص وهنات شأن أيّ عمل بشريّ [31].

كما يعود الفضل أيضا للمستشرق ونسنك [Wensinck, A.J] في إعداد الموسوعة الحديثيّة المتميزة "مفتاح كنوز السنة" (1954 م) التي عرّبها محمد فؤاد عبد الباقي، والمتضمّنة لكل ما ورد من مادة حديثية في أربعة عشر مصنّفا من أمهات كتب السنة النبوية التسعة السالفة

(30) وهي صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجة، وسنن الدارمي، ومسند أحمد، و موطأ مالك.

(31) الطيب (أحمد)، ترجمة المقدمات الفرنسية للمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، ع 1 ، 1404 هـ / 1984م، ص 239 ـ 295.

الذكر بالإضافة إلى مسند أبي داود الطيالسي، ومسند زيد بن علي، ومغازي الواقدي، وسيرة ابن هشام، والطبقات الكبرى لابن سعد.

ومن مصنفات المستشرق ونسنك الرائدة أيضا في هذا المجال، نذكر: "موقف الرسول ﷺ من يهود المدينة" (1908 م)، و"الإسرائيليات في الإسلام" (1913 م)، و"العقيدة الإسلامية وتطورها التاريخي" (1932 م)، و"الأثر اليهودي في أصل الشّعائر الإسلامية" (1954م)، التي لقيت منذ صدورها اهتماما متزايدا.

- التصحيح والتصويب :

يُعتبر المستشرق الهولندي أدر ريلاندوس [Adr. RELANDOUS] (1676 م - 1718 م) أستاذ اللغات الشرقيّة في جامعة أوترخت من أوائل المؤسّسين لهذا الاتجاه بحكم تخصّصه في الدّين الإسلامي، وتمرّسه في اللغة العربية، إذ يُعتبر كتابه الصادر سنة 1705 م في مجلدين، حول العقيدة الإسلامية وتصويب فكرة الأوربيين الخاطئة عن الإسلام، من أروع ما صنّف قديما في هذا الباب حيث دافع صاحبه من خلاله بكلّ نزاهة وجرأة عن النبي محمد ﷺ ، ورسالته الخالدة، مصحّحا بذلك العديد من الآراء المغلوطة عن الإسلام في أوربا، الأمر الذي أزعج الكثير من الأوساط المسيحيّة إلى أن انتهى الأمر باتّهام مؤلّف الكتاب من قبل الكنيسة الكاثوليكية بمحاولة القيام بعمل دعائي للإسلام، وإدراج مصنّفه ضمن الكتب المحرّم تداولها بين المسيحيّين، إلا أنّ كلّ ذلك لم يمنع ريلاندوس من التّشبث بموقفه، والدّفاع عن آرائه.

يضاف إلى ذلك العمل الأكاديمي الذّائع الصّيت الّذي قام به المستشرق توماس أرلوند [Thomas ARLOND] (1864 م - 1930 م) والمتمثّل في كتابه "الدّعوة إلى الإسلام"، (1896 م) الذي كشف من خلاله عن الكثير

من الحقائق في إطار إنصافه للمسلمين والإسلام دينا وحضارة ، وهونفس المسلك الذي اختاره مارتن لينقز [Martin Lings] في كتابه "الرسول محمد من خلال أقدم المصادر" (32).

ولا يفوتنا في هذا المقام التذكير أيضا بالدّور الرّيادي للمستشرقة الذائعة الصّيت زيجريد هونكة المعروفة بنهجها المعتدل في تناول قضايا الإسلام والمسلمين من خلال كتابها المتميّز "شمس العرب تسطع على الغرب". ومما لا شكّ فيه أنّ هذا التوجّه الرّشيد، والمنهج السّديد، يعود، فيما اعتقد، إلى أسباب عدة من أبرزها :

- ما حقّقه أصحاب هذا النّهج من تبحّر في تخصّصاتهم، وما اكتسبوه من سعة أفق.

- تحمّس هذه الكوكبة من المستشرقين للتعرّف على حقيقة النبي الجديد ﷺ ، ورغبتها في الاطّلاع المباشر على مختلف معالم رسالته.

- استقلال هذا الفريق في البحث والتفكير بسبب عدم ارتباطه، فيما يبدو، بدوائر كنسية حاقدة ومراكز بحثيّة مشبوهة.

ونظرا لتشبّث ثلة من هؤلاء بهذا المسلك في البحث، ورفضها الصّارم لكلّ أشكال التبعيّة، فقد تيسّر للبعض منهم اعتناق الإسلام عن علم وتدبّر، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر المستشرق الفرنسي دينيه [Dinet, Et] (1861 م - 1929 م) الجزائري المنشأ والمدفن، المعروف باسم "ناصر الدين دينيه" (1927 م)، المصنّف لكتابي "أشعة من نور الإسلام" (33) ، و"محمد رسول الله" ﷺ. (34)

(32) Le Prophète Mohammad : sa vie d'après les sources les plus anciennes traduit de l'anglais par Jean-Alouis Michon, Paris.

(33) تعريب رشاد رستم (د ت).

(34) محمد رسول الله ﷺ، تعريب عبد الحليم محمود، و محمد عبد الحليم محمود، الشركة العربية للطباعة والنشر، مصر، ط 3، 1959م.

وكذلك المستشرق الألماني ليوبولد فايس [Leopold .WEISS] المعروف باسم "محمد أسد" مؤلف كتابي "الطريق إلى الإسلام" [35]، و"الإسلام على مفترق الطريق" (1946 م) [36]. والمؤسّس بالتعاون مع زميل له لمجلّة الثقافة الإسلامية (1927 م) الّتي تولّى وغيره من خلالها نشر عدد من الدّراسات كان معظمها في مجال تصحيح أخطاء بعض المستشرقين عن الإسلام.

وأخيرا وليس آخرا المستشرق والفيلسوف الفرنسي روجي جارودي [R. Garodi] المتسمي بعد اعتناقه الإسلام بـ "رجا جارودي" الذي لم يتوقّف عن العطاء العلمي، يدافع عن الحقّ بالحقّ من أجل الحقّ، وأمثال هؤلاء الذين يبحثون عن الحقيقة باقتدار علمي، وعزيمة راسخة، في تزايد مستمرّ لا سيما بعد زلزال 11 سبتمبر.

ب ـ البعد الآخر لاهتمام المستشرقين بالحديث النبوي :

لقد تأكّد جليّا أنّه ومع نهاية القرن السابع عشر بدأ العالم يشهد نظرة جديدة إلى الإسلام تتميّز بالكثير من الموضوعيّة، إلاّ أنّ هذا التيّار المعتدل كان وللأسف الشّديد يواجه ميدانيا تيّارا من صنف آخر، همّه الأكبر الطّعن في الدّين الإسلامي، وتشويه صورته وصورة معتنقيه، وفق مسالك بعيدة كلّ البعد عن المتعارف عليه من قواعد البحث العلمي. يقول عبد الرحمان بدوي واصفا منهج الأب الروحي للاستشراق " كان أجناس جولد تزيهر [Goldziherl] ينهج في أبحاثه منهجا استدلاليا لا استقرائيا، فكان يُقبل على النّصوص وفي عقله جهاز من المقولات والصّور الإجمالية، يحاول تطبيقها على هذه النّصوص والتّوفيق بينها وبين

(35) نقله إلى العربية نبيل البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3، 1968 م.

(36) تعريب عمر فروخ، (د ت).

ما يوحي به ظاهر النصّ حتّى يتلاءم وهذه الصّور الإجمالية ويَدخل في نطاق تلك المقولات" [37].

ـ المسّ بالقيادات الدّينية والنّيل من المرجعيّات العلميّة :

يتجلّى ذلك بكلّ وضوح في النّيل من شخصيّة الرّسول ﷺ من خلال وصفه من قبل بعض المستشرقين بأوصاف لا تليق به، فضلا عن عدم توفّر البراهين والحجج المؤيّدة لمزاعمهم كادعاء بعضهم بأنه ﷺ كان مجرد كاردينال روماني يسعى إلى الحصول على تاج البابوية، في حين يصفه آخرون بالعربيّ المتعصّب المدّعي للنبوة [38] الذي يعيش في بيت تعمّه الفوضى، وتنهشه الخصومات، ويسوده التدابر[39].

فهو حسب زعم فولتير [Voltaire] (1694 م ـ 1773 م)، المنافق الّذي لا يعرف الحياء، والمضلّل والظالم الّذي تدفعه النّوازع الحسية، والتعطّش للدّماء كما يوحي بذلك ما جاء في روايته المأسوية "محمّد أو التعصّب" التي تقمّص فيها تارتيف [Tartuffe] شخصية محمّد، الرّجل الكاذب المخادع [40].

(37) بدوي (عبد الرحمن)، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، الطبعة المصرية، 1940 م، ص 311 .

(38) انظر : Mills : Histoire du Mohamedisme. traduit de l'anglais par Germain - Buisson Paris 1826

(39) انظر : Lamens. H : Fatima et les filles de Mohamet, Rome, 1912.

(40) يبدو أنّ فولتير ومن خلال ما أورده في كتابه «Essai sur les moeurs» قد أعلن توبته، وعاد إلى جادّة الصّواب حيث أصبح النبي محمد ﷺ، هو ذلك الرّجل العظيم الذي جمع في شخصه بين الفاتح والمشرّع والحاكم والكاهن، وقام بأدوار إنسانية يستحيل على أي كان على وجه الأرض القيام بها.

أما المستشرق النمساوي ألويس شبرنجر [Sprenger. Aloys] (1813 م - 1893 م)، فقد خلص في كتابه "حياة محمّد وتعاليمه" إلى أن نبي الإسلام ﷺ كان إنسانا هستيريا، والحقّ أن صور القذف، وأساليب التهكّم، وأنماط السّخرية في حقّ الرسول المصطفى ﷺ أكثر من أن تُحصى [41].

وقد برّر غيلبرت دونوجنت [Guilbert Denogent] بعد اعترافه بعدم عثوره عن أيّة حجّة لما يزعمه من أباطيل في حقّ رسول الله ﷺ وأن "لا جناح على الإنسان إذا ذكر بالسّوء من يفوق خبثه كلّ سوء يمكن أن يتصوّره المرء" [42].

وليقينهم بأنّه كلّما قلّت الثّقة بالنّاقل انعدمت الثّقة بالمنقول، تحوّل بعض المستشرقين في مرحلة موالية إلى الطّعن في أكثر الرواة شهرة من الصّحابة والتّابعين، فحطّوا من القيمة العلميّة لكبار المحدّثين، وكلّ من كان لهم دور في تحمّل الحديث النّبوي وتوثيقه وفقهه وأدائه، متّهمين إيّاهم بعدم النّزاهة، وانعدام الموضوعيّة، من ذلك اتّهام إجناس جولد تزيهر [I. Goldziher] لابن شهاب الزّهري المشرف الرّئيسي على عملية تدوين الحديث النّبوي بوضع حديث "لا تُشدّ الرّحال إلاّ لثلاث" [43] من أجل إضفاء المسحة الدّينية اللاّزمة لبناء عبد الملك بن

(41) انظر: حمدان (نذير)، الرسول في كتابات المستشرقين، رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، (د ت).

(42) شاخت (جوزيف) ومن معه، تراث الإسلام، تعليق و تحقيق شاكر مصطفى، مراجعة فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة الكويتية، ع 233، ص 38.

(43) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، ح 1115، ومسلم في الجامع الصحيح، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، ح 2383، موسوعة الحديث النبوي الشريف شركة صخر، الإصدار الثاني، 1997م .

مروان لقبة الصّخرة، رغبة منه في تحويل وجهة الحجّاج من مكّة المكرّمة إلى بيت المقدس المعمور، متجاهلا أن القبّة من إنجاز الوليد بن عبد الملك لا غيره كما أكد ذلك أكثر من مؤرّخ، ثم أن ما ادعاه لا يمكن أن يجول بخاطر عبد الملك مطلقا، وهوما رفضه المستشرق المنصف يوسف هوروفتش [J. Horovitz] رفضا مطلقا (44).

وممّا اتّهم به الزّهري أيضا من قبل هذا المستشرق أنّه كان من فقهاء البلاط الأموي، وعلى استعداد لأن يضع لبني أميّة ما أرادوا واشتهوا من الأحاديث لإضفاء الشرعيّة على ملكهم، مستغلا اسمه المعترف به عند الأمة الإسلاميّة، فضلا عن اتهامه كذلك بمصاحبة الحجاج بن يوسف الثّقفي في طريقه إلى الحجّ.

والحقّ أنّ جولد تزيهر لم يكن أمينا في ما ذكره حيث ثبت أن ابن شهاب الزهري كان أسمى من أن يرتكب ما ادّعاه جولد تزيهر في حقّ حديث رسول الله ﷺ، إذ ما من أحد من علماء الجرح والتعديل إلا وكان يُشيد بحزم الزهري في الذّب عن السنة النبوية والمحافظة عليها من كلّ زيادة أو نقصان (45).

كما أنّ حسن علاقة الزهريّ بالسّلطة الحاكمة لا يحطّ من منزلته، ولا يقدح في مروءته، ما لم يساوم في حقّ، أويسكت عن باطل، وخير شاهد على ذلك أنّه دخل على الوليد بن عبد الملك فقال الوليد: ما حديث

(44) هوروفيتش (يوسف)، المغازي الأولى ومؤلفوها، تعريب حسن نصار، مطبعة البناني بمصر، ط 1، 1369 هـ / 1949م، ص 53.

(45) انظر ترجمة الزهري (محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب) (56 هـ / 132 هـ) في كل من : سير أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ / 1996م، 133/6 ـ 152، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، دار الفكر، ط1، 1404 هـ / 1984م، 395/9 ـ 399.

يحدثنا به أهل الشّام ؟ قال : يحدّثوننا أنّ الله إذا استرعى عبدا رعيّته كتب له الحسنات، ولم يكتب له السيّئات، فأجاب الزهري : باطل يا أمير المؤمنين، أنبي خليفة أكرم على الله أم خليفة غير نبي ؟ ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ (46) فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة، فما ظنك بخليفة غير نبي ؟ (47).

ثمّ أنّ جولد تزيهر قد جانب الصّواب أيضا في تقوّله بأنّ الزهريّ كان بصحبة الحجّاج بن يوسف لمّا كان في طريقه إلى الحج لانعدام الدليل إذ من المعلوم أنّ ما ورد في مختلف المصادر يكذّب مزاعم جولد تزيهر وهذا النصّ المعتمد في هذه الحادثة كما أورده ابن حجر "وأخرج عبد الرزاق في مصنفه عنه (الزهري) قال : كتب عبد الملك إلى الحجاج أن إقتد بابن عمر في المناسك، فأرسل إليه (أي إلى ابن عمر) الحجاج يوم عرفه إذا أردت أن تروح فآذنا، فراح هو وسالم، وأنا معهما" (48).

وهكذا يتّضح أنّ الزهري كان يومها مع عبد الله بن عمر وسالم حينما اجتمعوا بالحجّاج لا في معية الحجاج بن يوسف، هذا فضلا عمّا في كلام جولد تزيهر من لمز لعبد الملك بن مروان والحجّاج بن يوسف الثقفي حيث تغافل جولد تزيهر قصدا عن استنتاج ما يجدر بالباحث النزيه استخلاصه من هذا التجاوب الحاصل بين الأمير وواليه، والتزامهما بالرجوع إلى أهل التخصّص كلما دعت الحاجة، وليس ذلك بالأمر

(46) سورة ص: 26/38.

(47) ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسي)، العقد الفريد، الطبعة المصرية، 1372 هـ / 1983م، 60/1.

(48) تهذيب التهذيب : 399/9.

المستغرب من جولد تزيهر ومن على شاكلته ممن عرفوا بمعاداتهم لبني أميّة وتشويه صورتهم في إطار حملتهم الواسعة على الإسلام.

- التّشكيك في السنّة والتّهوين من المنهج النّقدي عند المحدّثين :

في الوقت الذي يقرّ فيه النّزهاء من المستشرقين مثل منتجومري وات [Montgomery Wat] عميد قسم الدّراسات العربيّة في جامعة إدنبرا من خلال ما أورده في كتابه "محمّد في مكّة" (1958 م) (49) بصحّة الكثير من الأحاديث النّبويّة، وفي مقدمتها ما تضمّنته كُتب الصّحاح وأغلب ما ذكر في كتب السّنن وشروحها المعتبرة، وتأكيدهم الصّريح على أنّ الأحاديث النّبوية تظلّ خير معين لفهم القرآن الكريم باعتبار السنّة المصدر الثّاني من مصادر التّشريع الإسلامي، وأنّه لا مجال للتحفّظ عليها إلا بدليل بيّن من صحيح المنقول أو سديد المعقول، يتخندق آخرون للطّعن في الحديث النّبوي من خلال ما يبدونه من مزاعم مريبة حول هذا المصدر بعد أن أقرّوا بفشلهم في مهاجمة القرآن الكريم، زاعمين أنّ أغلب الحديث من الموضوعات كما صرّح بذلك جولد تزيهر في أكثر من مناسبة، من خلال دعوته الملحّة إلى ضرورة ملازمة الحذر المتشائم حول صحّة الأحاديث المجمّعة في الموسوعات الحديثيّة، باعتبار أنّ أغلب الأحاديث ليست إلاّ نتيجة للتطوّر الدّيني والتاريخي والاجتماعي للإسلام طيلة القرنين الأوّلين، مؤكّدا أنّ معظمها من الإسرائيليات، وهو ما يستوجب إعادة النّظر فيها بالاعتماد على منهج نقدي حديث، يقوم على النّقد الدّاخلي للحديث بالاحتكام إلى العقل دون سواه (50)، متّهما كلّ

(49) تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة المصرية، بيروت (د ط ت)، انظر : ص 9 - 14، وكذلك كتابه "فضل الإسلام على الحضارة الغربية"، تعريب حسن أحمد أمين، دار الشروق، مصر.

(50) جولد تزيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تعريب محمد يوسف موسى ومن معه، الطبعة المصرية، 1946، ص 51 - 52.

مخالف له في ما ادّعاه، بالتقصير في البحث والتسرع في الحكم كما هو الحال بالنّسبة للمستشرق دوزي [Dozy] (1820 م - 1883 م) الّذي أعلن من منطلق علميّ نزيه ومحايد اطمئنانه لجزء كبير من الأحاديث النّبوية (51).

ومن المزاعم الأخرى لهذا المستشرق أنّ علماء المسلمين عمدوا إلى وضع واختلاق عدد كبير من الأحاديث ونسبتها إلى نبيّهم من أجل تحويل دينهم إلى دين شامل، محاولا بذلك تأصيل فكرة أن الحديث لا علاقة له بنبوّته ﷺ ، وأنّه مجرّد اختلاق من علماء المراحل اللاحقة للعهد النبوي بسبب ما نشب بينهم من حروب كلامية طاحنة وفتن سياسية مدمّرة من أجل الاستيلاء على السلطة والتفرّد بالحكم.

لقد كان المستشرق غرايتاين [Grayten] من أوائل الرّافضين لهذه المزاعم وما شابهها مؤكّدا أنّ فكرة الشريعة ليست نتيجة للتطوّرات التي طرأت بعد القرآن الكريم، أو بمعنى آخر بعد وفاة النبي ﷺ بل أنها صيغت من قِبل محمد ﷺ نفسه (52).

(51) أعلن هذا المستشرق الفرنسي الأصل في كتابه المتميز "تاريخ الإسلام" إعجابه بكثرة الأحاديث الصحيحة المنسوبة إلى رسول الله ﷺ، وما تحتوي عليه من تشريعات وأحكام وقيم وآداب لافتة للانتباه، غير مستغرب في ذات الوقت وجود بعض الموضوعات المنسوبة زورا و بهتانا لرسول الله معتبرا ذلك من طبيعة الأشياء. لمزيد التوسع، انظر

Dozy : Histoire sur l'histoire de l'islamisme, Traduction Française, Victor Chauvin Paris, p124.

وهو ما أكّده المستشرق الفرنسي سوفاجه، ج [Sauvget. J] (1901 م - 1950 م) حيث حذر من مبالغة البعض في التّهوين والتّشكيك في الأحاديث النّبويّة، مؤكّدا عدم وجود سبب منطقي يدفع إلى نكران ما لها من فضل باعتبارها شواهد صادقة في تحديد الكثير من الوقائع التّاريخية. لمزيد التوسّع انظر :

Sauvget. J ; Introduction à l' histoire de l'Orient musulman, Paris, 1961, p30.

(52) مجموعة من الأساتذة، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، 1985 م، ص 33.

وحرصا منه في إثارة المزيد من الشبهات حول الحديث النّبوي، انتقل جولد تزيهر من التّشكيك في السّنة إلى التشكيك في المنهج النّقدي المعتمد في حصحصتها من طرف علماء الحديث، زاعما أنّ مقاومة تحريف النصوص لم تكن محلّ اتّفاق بين الجميع بشكل واضح، ممّا فتح الباب أمام البعض من علماء الجرح والتّعديل للبحث عن ظروف التّخفيف لأولئك الّذين وضعوا ونشروا أخبار ا مكذوبة، مدّعيا أنّه لا اطمئنان إلا للأحاديث المتعلّقة بالحلال والحرام، زاعما أنّه، ولئن كان الكذب غير مسموح به، فإنّ من العلماء من سمح لنفسه بالتّساهل في قبول الأحاديث المتعلّقة بالآداب ورقائق الأعمال.

وهو ما أكد عليه بأساليب مختلفة تلميذه البار المستشرق جوزيف شاخت [J.S. CHACHT] (1902 م / 1969 م)، والمستشرق رودنسون بزعمهما أنّه رغم تعرّض الأحاديث في مرحلة متقدّمة للنّقد من قبل علماء مسلمين ذوي مكانة علميّة مرموقة، وما ترتّب عن ذلك من رفض لعدد كبير منها باعتبارها أحاديث موضوعة، فإنّ المتبقّي منها يبدوفي أغلب الأحيان ملفّقا، ولا يمكن الاطمئنان إليه والاعتماد عليه [53]. والسّبب في ذلك استحالة الاطمئنان التّام إلى هذه السّلاسل الّتي لا ضامن لصدقها في نظر العلم بسبب ما يوجد من تناقض بينها، الأمر الّذي جعل بعض المؤلّفين العرب أنفسهم في العصور الوسطى يثيرون الشّبهات حولها وفق معايير مختلفة، مع التّأكيد أنّ المنهج التاريخي الحديث يظلّ الأكثر دقّة في تمحيص تلك المرويات، واتّخاذ الموقف المناسب منها [54]، متجاهلين ما سنّه علماء الحديث من قواعد ووضعوه من ضوابط رائدة في هذا الباب.

(53) لمزيد التوسع انظر: ماكسيم رودنسون : تقويم الدراسات المحمدية، المجلة التاريخية ع 229، س 1963 م، ص 198 - 200.

(54) المؤلف نفسه : الاسلام و الرأسمالية [Islam et capitalisme, Paris, 1966]، تعريب نزيه حكيم، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1979، ص 29 - 30.

ومن بين الّذين اشتهروا أيضا بالتّشكيك المتواصل في الحديث النّبوي المستشرق بلاشير الّذي استبعد أن يكون ما اعتمد من مقاييس نقديّة لغربلة الأحاديث قادرا على تخليصها تماما مما علق بها، الأمر الذي يجعل، من وجهة نظره، الاطمئنان إلى المصادر الحديثيّة المتداولة في منتهى الهشاشة، مستشهدا استشهادا غير بريء بما جاء على لسان الإمام أحمد بن حنبل "كنّا إذا روينا في الحلال والحرام تشدّدنا، وإذا روينا في الفضائل تساهلنا" [55] محاولا بذلك تشويه صورة الإمام، متّهما إيّاه دون دليل بالتّساهل في رواية الحديث خارج مجال الأحكام.

وخير شاهد على براءة الإمام وحزمه في نقد الأسانيد وكثرة تثبّته في المتون، دون استثناء أوتمييز، ما تضمّنته موسوعته الشّهيرة من مادّة حديثيّة حول علل الحديث ونقد الرّجال [56].

ومحاولة من هؤلاء المستشرقين والمتعاطفين معهم لإقناع غير أهل التخصص بصواب مزاعمهم وعلى رأسهم سبرنجر [Sprenger] (1813 م - 1893 م) ادّعاؤهم بأنّ الأصول والقواعد التّي راعاها البخاري لا يمكن أن تسمّى نقدا لاقتصارها على سلسلة الرّواة دون المتن، فضلا عن أنّه كان يَرُدّ كلّ حديث لا يتوافق مع أرائه.

والكلّ يعلم أنّ اهتمام البخاري بقدر ما انصبّ على نقد الحديث سندا فقد أولى عناية متزايدة بالمتن بشهادة العارفين بمنهجه من مسلمين

(55) BLACHERE. R : Le Problème de Mohamed, Paris. 1952. p 2-3.

(56) انظر : ابن حنبل (أحمد)، كتاب العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وتخريج وصي الله عباس، المكتب الإسلامي، ط 1، 1408 هـ / 1988 م، الصادر في أربعة مجلدات ضخمة، والتي أبرزت مضامينها سعة علم الإمام أحمد بالرجال، وتمام معرفته بالمتون، وأن دوره لم يقتصر على مجرد جمع تراجم الرواة بل بحث بحثا دقيقا في مروياتهم بما في ذلك روايات الثقاة المعروفين، اعتقادا منه أن الثقة قد يَهم بل ويخطئ، فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وغيرهم، كما أنّه وبقدر ما روى في جامعه من أراء مؤيّدة لوجهة نظره، فقد ضمّنه عديد الآراء المعارضة، كلّ ذلك في إطار رغبته تعريف قرّائه بآراء الآخرين، ودفعهم إلى الانفتاح على غيرهم وتعزيز التواصل معهم لما فيه خير الجميع حاضرا ومستقبلا، وتراجم الجامع الصحيح خير شاهد على ذلك.

لقد دأبت هذه الزّمرة من غلاة المستشرقين على اتباع سياسة دسّ السمّ في العسل شعارهم أنّ كلّ حديث نبوي يظلّ موضوعا حتّى تقوم البيّنة على خلاف ذلك، متناسين أنّ منهج البخاري وغيره من كبار المحدثين في تحمّل الحديث وأدائه بعد التأكّد من سلامته سندا ومتنا كان مفخرة من مفاخر هذه الأمة، وخصيصة من أبرز خصائصها، إذ لم يشهد التّاريخ أمّة اهتمّت بنقد موروثها الدّيني، واستمرّت في غربلته من كلّ زيادة أونقصان بالشّكل الذي قام به المسلمون.

وهو ما أشاد به نزهاء المستشرقين كمارجوليوث [Margoliouth] (57)، وفنسنك [Wensinck]، وروزنتال [Rosenthal. Fr] (58)، وغيرهم من المنصفين، بل ومن بعض كبار المؤرخين من غير المسلمين كالمؤرخ المسيحي أسد رستم في كتابه "أصول الرّواية التّاريخية". يقول الشكعة "لقد وضع علماء الحديث قوانين وضوابط لم يسبقوا بها في تاريخ العلوم عند أمّة من الأمم السّابقة ولاغيرها من الأمم اللاّحقة، الأمر الذي أذهل أساتذة المناهج في الغرب

(57) انظر كتابه : " تطوّر الإسلام في عصر مبكّر"

.Margoliouth : The early development of Mohammedism, London, 1914.

(58) انظر : Rosenthal : The Technique and approach of Muslim Scholarship Pontific Institution Bell scum.

تعريب أنيس فريحه، دار الثقافة، بيروت، 1400 هـ / 1980 م.

الأوروبي، الذين لم تخل صفوفهم من متحيّز أو متحامل، الأمر الذي دفع بهذا الفريق الأخير حين لم يجد مآخذ على منهج الرواية إلا أن يتهموا رجال الحديث، ظلما وجهلا، بأنّ اهتمامهم انصبّ على المنهج والرواية دون المتن والنص، وهم في ذلك أيضا إمّا متحاملون وإمّا جاهلون حال عجزهم عن فهم النّصوص ومتابعتها بينهم، وبين أن يصدروا أحكاما سليمة تتماشى مع طبيعة أرقى منهج علمي لتوثيق رواية بعينها عند أمة من الأمم حتى يومنا هذا " [59].

- تحريف الكلم عن مواضعه :

وهو مسلك آخر حرص بعض المستشرقين وفي مقدّمتهم جولد تزيهر على اتّباعه، وشاهد ذلك ما نقله هذا الأخير عن الزّهري " إنّ الأمراء أكرهونا على كتابة أحاديث" [60] بينما القول المأثور عن ابن شهاب الزهري هو"أن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث" [61] أي على تدوين السنّة.

لقد عمد جولد تزيهر إلى حذف الألف واللاّم من كلمة الأحاديث لتصبح "أحاديث" وبذلك يختلف المعنى دون أن يتفطن القارئ غير الخبير إلى ما وراء السطور، لأنّ كلمة الأحاديث تفيد أنّ الإكراه وقع على كتابة الأحاديث النبويّة أي على تدوينها، في حين أنّ كلمة أحاديث توحي

(59) الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص 49.

(60) نقلا عن السباعي (مصطفى)، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، الدار القومية للطباعة و النشر، (د ت) ص 327. وكذلك : ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، 1876هـ / 1956م، 135/2.

(61) ابن عساكر، تاريخ دمشق ، تهذيب عبد القادر بدران، (د ت) ، 400/14، وقريب منه ما أورده الخطيب البغدادي في كتابه : تقييد العلم، تصدير وتحقيق وتعليق يوسف العش، دار احياء السنة النبوية، ط 2، 1974، ص107.

بإكراه حكّام بني أميّة للزهري وأمثاله على وضع الأحاديث تحقيقا لأهدافهم، وهذا اتّهام خطير جدّا أراد جولد تزيهر تمريره لتأكيد أنّ كلاّ من الحكام والعلماء قد اشتركوا في وضع الحديث مما جعل السنّة تتضخّم بشكل رهيب.

ومن صور هذا التّحريف أيضا ما جاء على لسانه "ويقول وكيع (62) عن زياد بن عبد الله البكائي أنّه مع شرفه في الحديث كان كذوبا" غير أنّ الرواية المعتمدة من قبل كبار المؤرّخين وأعلام السّير هي ما ذكره ابن حجر "وقال وكيع : وهو أشرف (أي زياد) من أن يكذب" (63) و"لم يثبت أن وكيعا كذبه" (64) ، ممّا يؤكّد تعمّد جولد تزيهر تحريف النصّ الأصلي رغبة منه في النيل من أحد أعمدة الحديث النبوي ألا وهو زياد بن عبد الله البكائيّ (65) بشهادة مصطنعة نسبها زورا وبهتانا إلى وكيع، مستغلا ما يتمتع به البكائيّ من مصداقية وإشعاع واحترام بين المسلمين.

ومن المعلوم أنّ الجهود المبذولة من أجل إثارة المزيد من الشّبهات حول السنّة النّبوية، والمسّ برموزها بالنّيل منهم، والتّشكيك في مناهجهم لم ولن تتوقّف ما دام هذا التيّار ماض في طريقه، وخير شاهد على ذلك ما تشهده هذه الأيام شبكة الإنترنت من تزايد فظيع في عدد المواقع المصممة لهذا الغرض والصادرة بأكثر اللّغات العالمية انتشارا.

---

(62) المراد به وكيع بن الجراح. انظر ترجمته : تهذيب التهذيب 109/11 ـ 114.

(63) ابن حجر، تهذيب التهذيب 328/3.

(64) ابن حجر: تقريب التهذيب 268/1.

(65) زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي العامري أبو محمد، أخذ عن كبار المحدثين وجهابذة العلماء، وقد روى وتتلمذ عنه الكثيرون وفي مقدّمتهم الإمام أحمد الّذي سئل عنه فقال ليس به بأس، حديثه حديث أهل الصدق، وذكر ابن عدي أنّ له أحاديث صالحة، وقد روى عنه الثقاة من الناس، وما أرى بروايته بأسا. أخرج له البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة. وكانت وفاته سنة 183 هـ. انظر: تهذيب التهذيب 328/3 ـ 324.

- تصيّد الرّوايات الضّعيفة ووصم الصحيح بالوضع :

ومن أجل حرصه على تأصيل ما افترضه من مزاعم، وتحويلها تدريجيّا إلى حقائق، يستشهد جولد تزيهر على سبيل المثال بحديث "أوّل ما خلق الله العقل، فقال له : أقبل فأقبل، ثم قال : له أدبر فأدبر، ثم قال الله : وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقا أكرم علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب" (66) وذلك في إطار برهنته على مطابقة الأحاديث النبويّة للمقولات الأفلاطونية أو الغنوصية، ومن المعلوم أنّ هذا الحديث من الأحاديث غير المعتمدة، لأنّه وإن أخرجه بعض الرواة كالطبراني، واحتجّ به آخرون كالغزالي (67) مثلا، فإن ذلك لا يُجبر ما يشكوه من ضعف ظاهر بشهادة كبار المحدّثين من علماء الجرح والتعديل (68).

4 - الجهود المطلوبة

لقد كان الهدف الغالب من هذه العناية بالتّراث العربي، وفي مقدمته الحديث النّبوي، في البداية صدّ المسيحيين عن التأثّر بالإسلام وقيمه وحضارته بحكم ما كان يفترض وقوعه من احتكاك بين أصحاب

(66) انظر : ابن قيم الجوزية، المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق وتخريج وتعليق عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، سوريا، ط 1، 1390 هـ/ 1970م، ص 66.

(67) إحياء علوم الدين، كتاب العلم، الباب السابع في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه، دار الدعوة، تركيا، 1985، 89/1.

(68) قال زين الدين العراقي " أول ما خلق الله العقل قال له أقبل... الحديث، أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة، وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين، انظر : المغني في حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الأحياء من الأخبار على هامش كتاب إحياء علوم الدين السالف الذكر.

الديانتين، ثم تحوّل في مرحلة لاحقة إلى العمل على تشكيك العرب والمسلمين في كلّ ما لديهم من إرث حضاري وعقائدي.

وقد نجح غلاة المستشرقين في استنساخ بعض العقول المحسوبة على العرب والمسلمين نتيجة عدم تحصّن أصحابها بخلفية علميّة نقيّة ورؤية حضاريّة أصيلة، ممّا جعل هؤلاء المفتونين ينبرون للإشادة بكلّ ما توصّلت إليه مدارس الاستشراق من نتائج دون تمييز، والتّرويج له دون تدبّر.

وهو ما يستوجب من كلّ باحث منصف التصدّر للردّ عن تلك المزاعم بكلّ تعقّل وحكمة بعد الاطلاع الواسع والرّصين على مختلف ما كتب في هذا المجال، مع الالتزام بمخاطبة النّاس على قدر عقولهم، ومراعاة طبائع نفوسهم، باجتناب كلّ أشكال التهكّم والرّغبة في المغالبة لأنّ ذلك وما شابهه سيفقد النّقد العلميّ قيمته ووقعه في النّفوس بل سيزيد المشكلة تعقيدا بدل التّقليل من خطرها والمساعدة تدريجيّا على حلّها كما نبّه إلى ذلك المولى سبحانه ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (69).

ولما كانت المبادرات الفردية في هذا الباب لا تجد نفعا، فقد بات من الواجب على مختلف المؤسّسات البحثيّة والمراكز العلميّة الواعدة وضع استراتيجيّة مشتركة لبيان محاسن الاستشراق وتحديد سلبياته في إطار دعم الحوار وتعزيز التّواصل مع الآخر، وفق منهج واضح المعالم، بيّن الأهداف، بأشراف كبار الأساتذة وخيرة الباحثين من ذوي الخبرة العالية والتّجربة الطويلة، ممّا سيساعد تدريجيّا على إقامة صلات علميّة وطيدة

(69) سورة الأنعام، 108/6.

بين العقلاء من الجانبين، وتوثيق العلاقات على أكثر من صعيد بين العالمين، وصولا إلى يوم تصبح فيه الحقيقة لا غير الهدف الوحيد لكلّ استشراق واستشراق مضادّ.

وتعزيزا لهذا التوجّه، ودعما لسبل الحوار بين مختلف الأطراف، يتأكّد على أساتذة الجامعات في مختلف التخصّصات، توجيه ثلّة من طلبة الدّراسات العليا إلى الاهتمام بالمسائل موضع الخلاف بين الجانبين لمزيد التعمق في بحثها، وإقامة النّدوات والمؤتمرات حولها لدراستها الدّراسة العلمية الوافية، والخروج بنتائج مشتركة.

إذ بهذا وغيره من وجوه الاستغلال الأمثل لمختلف الفضاءات، والتوظيف الأفضل لمختلف وسائل الاتّصال، وفي مقدّمتها شبكة الإنترنت، يمكننا معشر الباحثين من مختلف الملل والنحل أن نجنّب أنفسنا تبادل الاتهامات والمخاوف، ونتقدّم نحو تحقيق تواصل أوثق، وتعارف أعمق، وتعاون أنبل، من أجل عالم جديد خال من الضغائن والكراهية والإلغاء المتبادل، استجابة للنّداء الربّاني ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [70].

(70) سورة الحجرات، 13/49.